المقدمـــة

مازالت اتجاهات الحداثة تغزو وتُحاصر أفكارنا، بل و تسيطر على أبحاث مفكرينا عبر شتى دراسات العلوم، وحتى على مستوى النشاطات اليومية، بمعنى أننا أصبحنا مطالبون بمواكبة صيحة الحداثة و الأخذ بمبادئ التحديث، والعمل بها فى جميع مناحى تفكيرنا و تطبيقاتها العملية.

هذا فى الوقت الذى طالعتنا زمرة فلاسفة ومفكرى الغرب بإستراتيجية مناهضة للحداثة، هى فى صميمها وجهات نظر نقدية، تتناول بالنقد مجمل الفكر البشرى السابق عليها من فلسفات و مناهج و تَمسُ أيضاً طرق معرفتنا و كيفية علاقتنا باللغة، و هذا يعنى ضمناً أن نقد ما بعد الحداثة إنما أتى لنقد التراث البشرى عامة، بما فيه فكر الحداثة، و لكى يكشف عن مأزق الفكر الغربى خلال و بعد الحداثة.

وسواءً نجح الفكر الغربى أم لم ينجح فى الخروج من مأزقه باستراتيجية الحداثة أو باستراتيجية ما بعد الحداثة. فعلينا (نحن المجتمعات العربية أو الشرقية) أن نتحدث (نطبق مبادئ الحداثة) أولاً لنتهيأ لدخول مرحلة ما بعد الحداثة، لنواكب المجتمع الغربى الذى حتمت علينا سمات عصرنا التكنولوجية ضرورة مواكبته، لكوننا نحيا معاً فى نفس القرية الإلكترونية الصغيرة.

ومن هنا تنبع أهمية بحثنا هذا (جذور الحداثة و ما بعد الحداثة).

أهمية البحث:

أولاً – للوقوف على مكونات الحداثة الفكرية، لتكوين فهم علمى أفضل لكيفية عمل استراتيجيتها، و التحقق من مدى اتساقها مع جذورها كأفكار تتطور أو تتغير طرق تناولها عبر تاريخ الفكر الفلسفى.

ثانياً – إن كانت أفكار الحداثة غريبة عنا (ليس لها جذوراً فى تراثنا)، فالنظرفى التراث الذى أنتج الحداثة (كجذور و مُمَهِدات و أفكار مؤثرة)، كل هذا مهم جداً لنفهم من خلاله و نقرأ جذور الحداثة و نفهم مشروعها و نتدبر نفعها و مُقتضيات تقدمها و أسباب تراجعها أو قصورها، و لنعلم حقيقة نقد ما بعد الحداثة و موقف الفكر الغربى النهائى من الحداثة التى أنتجها و فرضها، و اليوم ينتقدها و يرفضها.

ثالثاً – لما كانت أفكار الحداثة تضم بعض المتناقضات، و تتناقض مع أفكار ما بعد الحداثة، وهذه الأخيرة تزخر بالمتناقضات و تتعمد الغموض، كل هذا سيجعلنا نتناول معظم أفكار و مفاهيم الحداثة و ما بعدها بالتفصيل و التحليل، الذى يمكننا من الكشف عما يكتنفه فكر الحداثة من غموض، لنرى ما نحن مقبلين عليه إذا ما تعاطينا مع فكر الحداثة الغربى بنفس منطقهم دون أن ننتبه لاختلاف جذوره عن الأفكار التى شكلت فكرنا الشرقى فى مرحلة تألقه و ريادته للفكر البشرى.

رابعاً – سيمكننا البحث عن جذور الحداثة من مواكبة التغيرات التى طرأت على مباحث الفلسفة المعاصرة و مناهج البحث العلمى المعاصرة، حيث البنيوية والتفكيكية والتأويلية والفينومينولوجيا، وتحديد دور اللغة والنقد الأدبى فى فلسفة تلك النظريات النقدية المعاصرة.

خامساً- محاولة لسد عجزاً فى مكتبتنا العربية حول الحداثة و ما قبلها وما بعدها، لنرى ما هى الحاجات التى أدت لظهور الحداثة ؟، وكيف ومتى وأين بُدعت الحداثة؟ بطريقة علمية موثقة بالشواهد التاريخية.

و تلك ليست جميع العناصر التى يتحدد من خلالها أهمية البحث و لكنها أهمها، فباقى العناصر ستتضح من خلال متن البحث و من خلال تحديد أهدافه و مدى تحقيقها، لأن قيمة البحث يجب أن تحددها قيمة الغاية التى يتوجه إليها، و هى مجموعة من الأهداف تتحدد من خلال عدة أسئلة، نحاول أن تكون غايتنا فى هذا البحث هى العثور على أفضل أجوبة ممكنة علمياً (موثقة بالنصوص) لتلك الأسئلة المحورية، و هى كما يلى :

١ - هل هناك علاقة تأثير مباشر للأفكار و الاتجاهات الفلسفية السابقة (جذور و تراث الفكر الغربى) على فكر الحداثة و فكر ما بعد الحداثة؟ أم أن فكر ما بعد الحداثة يُمثل (كما يدعى رواده) قطيعة معرفية مع مجمل الفكر البشرى السابق، من حيث المنهج والمحتوى والاستراتيجية النقدية الجديدة و المفاهيم و المصطلحات ؟.

٢ - إذا كانت الحداثة و ما بعدها قد تأثرتا ببعض أفكار الفلسفات و الاتجاهات النقدية السابقة، فما هى أهم تلك الأفكار التى تأثرت بها الحداثة و كيف أثرت فى ما بعد الحداثة؟، و ما مدى و كيفية هذا التأثير ؟ و هل هناك دليل يؤكد صحة نَسَب الحداثة إلى جذورها.

٣ - إلى أى عصر أو قرن تمتد جذور الحداثة ؟ و هل يمكن أن نُحدد تاريخاً تقريبياً لنشأت تلك الأفكار التى مهدت و طالبت بضرورة التحديث ؟ و هل هناك بداية مُحددة لبزوغ فجر الحداثة أم يختلف الباحثين على بداية الحداثة بحسب تخصصاتهم ؟.

٤ – ما علاقة تطور الدراسات اللغوية (كنموذج أخذ بمتطلبات التحديث) بكل من نظرية المعرفة من جهة، و من جهة أخرى فكر الحداثة و فكر ما بعد الحداثة ؟.

٥ – هل هناك علاقة تأثير مباشر لفلسفة كانط النقدية (كجذور للحداثة) على البنيوية؟، وإذا ثبت تأثر البنيوية بفلسفة كانط، فبأيٍ من أفكاره تأثرت؟، وما هى الكيفية التى تعاملت بها البنيوية مع أفكار كانط الفلسفية ؟.

٦ – هل للتفكيكية جذور فلسفية تربط بينها و بين أفكار كلٍ من نيتشه و هايدجر ؟، و ما مدى تقارب كلٍ منهما مع أفكار ما بعد الحداثة و خصوصاً التفكيكية ؟، و ما هى مواضع التقارب التى تُمثل جذور ما بعد الحداثة ؟.

٧ – ما سبب حالة الفوضى النقدية التى تتسم بها نظريات ما بعد الحداثة النقدية ؟، و ما هى الفلسفة التى تؤثر على نظريات ما بعد الحداثة النقدية ؟، و ما هى الجذور المشتركة لنظريات ما بعد الحداثة ؟.

٨ – هل تتواصل الجذور الفلسفية للحداثة و تداخل مع أفكارها و مع أفكار ما بعد الحداثة ؟، أم أنها أفكاراً منفصلة لا تُمثل استمراراً للجذور ؟ (كمراحل تطور لنفس الفكرة التى قد تظهر بصياغة جديدة).

منهج البحث :

و للوصل لنتائج صائبة لمثل هذه الأسئلة كان لزاماً علينا أن نتبع فى بحثنا هذا المنهج "التحليلى التركيبى التاريخى"، و كذلك المنهج "التحليلى المقارن"، و المنهج "التحليلى النقدى "بحيث تتوافر لدينا جميع الأدوات التى تُمكننا من البحث التاريخى فى التراث الغربى، و تحليل أفكار أو نصوص فلاسفة و مفكرين و نقاد سابقين تاريخياً (تعمل كجذور)، ثم نقوم بتحليل الأفكار أو النصوص (الحداثية) المشابهة للأولى، ثم نُجرى المقارنة بينهما لنرى ما إذا كان بينهما تماثل أو تشابه، ليكون ذلك بمثابة دليل على رد الحداثة إلى جذورها التى يثبت المنهج المقارن تواصلاً بينهما، و المنهج التركيبى نستخدمه لتركيب ما حللناه من أفكار، أو لنركب ما نستنتجه من المقارنات، و المنهج التحليلى النقدى سيمكننا من تحليل الأفكار الغامضة و المتناقضة ببصيرة نقدية لا تكتفى بعرض الأفكار بل تتفحصها بنظرة نقدية، و ربما يكون هذا المنهج هو الذى مكننا من تكوين وجهة نظر خاصة بنا تجاه بعض الأفكار.

أما عن موضوع هذا البحث فهو محاولة متواضعة "للكشف عن جذور الحداثة و ما بعد الحداثة "، و يبدأ البحث بتمهيد نتناول فيه توضيح المقصود "بالحداثة "و تعريفها بالصياغات القاموسية و اللغوية المتوفرة، و توقيت ظهورها فى أوربا، و التغيرات التى أحدثتها على الفكر الفلسفى و غيره من العلوم الإنسانية، لكى تتميز مرحلة الحداثة عن أى مفهوم زمنى قد يعنى الجديد فى عصره.

ثم نتابع بعد ذلك فصول البحث و هى كما يلى :

الفصل الأول: "جـــذور الحداثـــة"

ترجـع جـذور الحداثـة فـى الفكـر الغربـى إلـى القـرن السـابع عشـر الميلادى، حيث ظهرت الفلسفة الحديث عند رواد الفكر العقلانـى "ديكارت "و التجريبـى "جـون لـوك "، فالفيلسـوف "ديكـارت "لا يـرى الحقيقـة إلا فـى الأفكـار الواضحة، حتى قيل عن اليقين الديكارتى الأول : "أنا أُفكر إذن أنا موجود"إنه بداية الخطاب العلمى المفارق أو بداية انفصال الكلمات (الدال) عن الأشياء (المدلول).

أما الفلاسفة التجريبيون و على رأسهم "جون لوك "فهم يعلنون التزامهم بمعطيـات العـالم المحسـوس، ممـا أكـد علـى ضـرورة الفصـل بـين الـدالات و المدلولات، و يخلص الفصل الأول إلى بيان أن بداية الحداثة الغربية فى القرن السابع عشر كانت ثورة على الفكر القديم، كما كانت ثورة فى الاستخدام اللغوى و الدراسات اللغوية، مما نتج عنه تغير العلاقة التى كانت بين الدال و المدلول (شقى العلامة اللغوية).

الفصل الثانى : "الحداثة و نظرية المعرفة".

يتضح لنا فى هذا الفصل أنه حتى منتصف القرن السابع عشر كانت هناك وحدة ثقافية (أو وحدة كونية) تربط بين مكوناتها (أو أضلاعها الأربعة) وهـى عـالم الميتافيزيقـا (الله)، والإنسـان، والعـالم المـادى (الطبيعـة)، واللغـة باعتبارهـا أداة التعبيـر عـن المعرفـة التـى تولـدها العلاقـات المتشـابكة بـين المكونـات الثلاثـة الأخـرى، إلـى هنـا كانـت المعرفـة ضـمن مباحـث الفلسـفة (و كانـت اللغـة تُبحـث ضـمن المعرفـة) إلـى أن ظهـرت المـذاهب الفلسـفية

(عقلانية و تجريبية و مثالية و وجودية) مما أحدث تغيرات فى علاقة تلك الأضلاع بدرجات متفاوتة، فترتب على ذلك تغيرات فى استخدام الإنسان للغة و نظرته إليها، و تطورت الدراسات و الأبحاث اللغوية فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر و بدايات القرن العشرين، إلى درجة جعلت فلاسفة اللغة يؤكدون على استقلال اللغة عن الإنسان.

و يظهر بعد ذلك النموذج اللغوى كمثال واضح للتقدم و التطور الذى أحرزه من خلال أخذه بمقومات و متطلبات التحديث، فأصبح النموذج الذى يجب أن يُحتذى به فى باقى العلوم الإنسانية لكى تتطور و تتقدم مثلماً تقدمت الدراسات اللغوية بعدما طبقت أسس و مبادئ الحداثة.

الفصل الثالث : "جذور الحداثة بين كانط و البنيوية"

يهدف هذا الفصل إلى التأكيد على أن البنيوية (وهى وليدة الحداثة الأوربية) كانت ثورة على المناهج الغربية التى تختص بدراسة الظواهر البشرية و على رأسها اللغة، كما كانت ثورة على الفلسفة ذاتها فيما زعم البنيويون من أن "الفلسفة لا تنبت فى أرض حرثتها البنيوية "و سنوضح فى هذا الفصل علاقة التأثر الظاهر بين البنيوية وبعض أفكار "كانط "الفلسفية، فالبنية التحتية "اللا شعورية "عند "ليفى ستراوس "هى نفسها قوالب الفكر الأولية التى تشكل المعرفة الممكنة عند كانط.

و قد كانت البنيوية تطمح إلى تأسيس مذهب نقدى جديد يعتمد فى شرعيته على منهج علمى تجريبى، على غرار اليقين الذى لم يشك فيه "كانط"، و سنبين فى هذا الفصل أيضاً قصور النموذج البنيوى فى الدراسات الأدبية، فقد بدأت مقاومة البنيوية بتركيباتها الجديدة التى ركزت على قهر الذات، ذات المبدع (المؤلف) و المتلقى (القارئ) و ذلك بإحلال اللغة كقوة قهر جبرية

جديدة محل العقل، و هذا كله يذكرنا بالفيلسوف "كانط "عندما استهدف إعادة الانضباط فى مجالى الفلسفة و الأخلاق.

الفصل الرابع : "التفكيكية و مارتن هايدجر"

نبين فى هذا الفصل إنه إذا كانت البنيوية قد ارتبطت باستقرار اليقين العلمى و التجريبى حتى الخمسينات من القرن العشرين، فإن التفكيكية لا تدرس بمعزل عن شك العصر بعد أن ظهرت آثار الدمار الذى خلفته الحرب العالمية الثانية، و ساد الاعتقاد بفشل العلم فى تحقيق الأمان وتمخض الشك عن إحساس جديد باستحالة المعرفة.

و سنبين أيضاً وجود تطابق بين رؤية كل من "نيتشه" و"مارتن هايدجر" وبين بعض أسس استراتيجية التفكيك عند رائد التفكيكية "جاك دريدا"، فقد كان "لمارتن هايدجر" رؤية واضحة المعالم لنظرية اللغة و الأدب، كما كان يذهب فى الفصل بين الدال والمدلول إلى أبعد مدى، فاللغة ليست فقط مستقلة عن الأشياء و سابقة عليها ؛ بل هى تسبق الكينونة ذاتها، و هى أداة الكينونة للتعبير عن وجودها، و اللغة التى يتحدث عنها "هايدج" هى الشعر لأنهما فعل أصيل للإنشاء، فالشعر هو التسمية الأولى للوجود وعنه تتولد كل الأشياء، و كان "دريدا" عند بداية حديثه عن "التفكيك" قد استخدم مصطلح "التدمير" و هى كلمة محورية فى فلسفة "هايدجر ".

الفصل الخامس : "علاقة التفكيك بالمذاهب الفوضوية و العدمية"

يتضمن هذا الفصل التأكيد على الخلفية الفلسفية (الوجودية) لكل من التفكيك و التأويل و التلقى و الفينومينولوجيا (كاتجاهات نقدية تُمثل فكر ما بعد الحداثة)، و نكشف هنا عن باقى جذور الحداثة و كيفية تداخلها كجذور أدت

إلى ما بعد الحداثة، و ذلك من خلال الكشف عن الجذور المشتركة التى أثرت بها الوجودية على التفكيكية و التأويل و التلقى و الفينومينولوجيا.

و نبين من خلال البحث فى هذا الفصل أهم سمات فكر ما بعد الحداثة، و انعكاس تلك السمات على النقد الأدبى و على أدب الحداثة و ما بعدها، لنرى كيف أثر الأخذ بالأفكار (التى هى جذور الحداثة) إلى أقصى مدى لها، و بعد تطويرها وتطبيقها فى مرحلة ما بعد الحداثة، وبعد تخلى فكر ما بعد الحداثة عن المركزية و النظام و القواعد الأدبية، ليحل محلها لا نهائية المعنى و لا مركزية الفكر و اللغة، فينتج عن ذلك تشتت المعنى و نسبية المعرفة و سيادة اللغة.

الخاتمة و أهم نتائج البحث.

و نحاول فى نهاية البحث أن نجيب على الأسئلة التى من أجلها توجه و انطلق البحث، بحسب ما توصلنا إليه من نتائج بحثنا خلال فصول هذا البحث.

أما عن المعوقات التى واجهت هذا البحث فكان أهمها ندرة المراجع المتخصصة أو عدم إتاحتها، إضافة إلى صعوبة الترجمة سواء للمراجع أو المصادر التى كُتبت جميعها إما بأسلوب يتعمد الغموض أو بأسلوب أدبى (يستخدم الكناية و التشبيهات البلاغية)، و صعوبة أخرى تتمثل فى اتساع موضوع البحث حيث يشتمل على موضوعات و فلسفات عدة (تغطى حولى أربعة قرون).

و لكن الحمد لله ولى التوفيق، الذى وفقنا إلى إتمام هذا البحث المتواضع، الذى نسأل الله عز و جل أن يجعله فى ميزان حسنات كل من ساهم بجهده ليوجهنا و يرشدنا إلى تصويبه، و نسأل الله المغفرة و منكم المعذرة

فيما سقط منا سهواً أو خطأً، فهذا جهد المُقل الذى به نبتغى مرتضاة الله.

والحمد لله العليم الخبير العفو الغفور.